وجه الإعجاز في القرآن الكريم

عبد المعبود سالم

لا يشك مسلم يؤمن بربه عز وجل وبرسالة نبيه ﷺ فى أن القرآن الذى نتلوه والذى هو بين أيدينا الآن كلام الله الذى أنزله على نبيه محمد ﷺ وأن الله قد أعجز به سائر البشر.

وأرى أنه ليس هناك من داع إلى التفصيل فى بيان الإعجاز إذ من البين الذى لا يخفى على أحد أن النبى ﷺ قد تحدى العرب أن يأتوا بمثل القرآن فعجزوا (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله)(١) كما تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا كذلك (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات)(٢) فعجزوا كذلك.

وأخيراً تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا أيضا (فأتوا بسورة من مثله)(٣).

وقد حدثنا التاريخ أنهم مع شدة التحدى والمعارضة قد عجزوا ولو استطاعوا لفعلوا ولوصل إلينا هذا الخبر متواتراً وذلك لكثرة أعداء النبى ﷺ المتحادين له ممن حرصوا على إبطال حجية القرآن وإشاعة ذلك بين الناس ويحدثنا علماء الكلام والفرق أن المسلمين قد اجتمعت كلمتهم على

(٣،٢،١) الآيات على التوالى الإسراء آية رقم ٨٨، هود آية رقم ١٣ البقرة آية رقم ٢٣

أن القرآن معجز وأنه بنظمه الغريب مع عذوبة ألفاظه قد أعجز الله عن مثله جميع العرب وغيرهم من الجن والإنس أن يأتوا بمثله وأنهم آثروا المضاربة على المقارعة وبذلوا فى سبيل ذلك المنهج والأرواح فى الحروب والنزال، وأن جمهور المسلمين على أن الإعجاز باق إلى يوم القيامة وآيته باقية أبد الدهر، وأن المسلمين عدا فرقة قليلة على أنه معجز بنظمه وبما فيه من أخبار عن الغيب .

ويرى ابن حزم الأندلسى أن هذا القول هو الحق وما يخالفه فهو ضلال(١) .

وعليه فالمسلمون متفقون فى الرأى على إعجاز القرآن لكن وقع الخلاف فى وجه الإعجاز فما هى إذن هذه الآراء ؟؟

فالإيجى صاحب المواقف والتفتازانى صاحب المقاصد يذكران جملة من هذه الآراء منها أن بعض العلماء يذهب إلى أن وجه الإعجاز فيه هو ما اشتمل عليه من النظم الغريب المخالف لنظم العرب ونثرهم فى مطالعه ومقاطعه وفواصله وعلى هذا الرأى سار بعض المعتزلة إلا النظام وهشاما الفوطى وعباد بن سليمان(٢) .

وذهبت طائفة إلى أن وجه الإعجاز كونه فى الدرجة العليا من البلاغة والدرجة القصوى من الفصاحة التى لم يعهد مثلها بلغاء العرب وفصحائهم وعلى ذلك الجاحظ(٣) .

---

(١) الفصل لابن حزم جـ ٣ صـ ١٥ شرح المقاصد قسم السمعيات بتعليق دكتور سليمان خميس صـ ٣٦

(٢) شرح المواقف للإيجى بتعليق دكتور يصار صـ ٩١ أيضا مقالات الإسلاميين للأشعرى صـ ٢٢٥

(٣) شرح المواقف صـ ٩١ شرح المقاصد صـ ٣٣

وقال القاضي الباقلاني وجه الإعجاز هو مجموع الأمرين : النظم الغريب وكونه في أعلى درجات البلاغة ، وقيل هو اخباره عن المغيبات الماضية والمستقبلة ، فالمستقبلة مثل قوله تعالى (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون)(١) (سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب)(٢) وهي كثيرة في القرآن .

والماضية كثيرة جداً فيها قصة نوح وموسى وعيسى وهود وصالح الخ.

وقال قوم هو عدم اختلافه وتناقضه مع ما فيه من الطول واحتجوا بقوله تعالى :(ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)(٣) .

ويذكر الشهرستاني آراء أخرى فوق تلك الآراء فأبو الحسن الأشعري إمام أهل السنة والجماعة يرى أن القرآن معجز من حيث بلاغته ونظامه مع فصاحته غير أن من أصحابه من خالفه فاعتقد أن الإعجاز في القرآن من جهة صرف الدواعي وهو المنع من المعتاد ومن جهة الإخبار عن المغيبات(٤).

وهذا الرأي (القول بالصرفة) وهو المنسوب إلى بعض رجال المدرسة الأشعرية لعله هو رأي الأستاذ أبي اسحاق الإسفراييني، ومما يوضح ذلك أن صاحب المواقف ذكر هذا الرأي ونسبه صراحة إلى الاستاذ الاسفراييني فيقول : (ذهبت طائفة إلى أن إعجازه بالصرفة بمعنى أن الله صرفهم عن معارضته والاتيان بمثله قبل التحدي مع قدرتهم على ذلك واختلف هؤلاء في وجه الصرفة فذهب الاستاذ أبو اسحاق الأسفراييني من الأشاعرة والنظام من المعتزلة إلى أن الله صرفهم بأن صرف دواعيهم إلى المعارضة مع توفر

(٣،٢،١) الآيات على التوالي سورة الروم آية رقم٢، سورة آل عمران آية رقم١٥١، سورة النساء آية٨٢

(٤) الملل والنحل للشهرستاني حـ١ ص ١٢٦

الأسباب الداعية إلى المعارضة خصوصا بعد التحدى والتبكيت بالعجز ، وقال الشريف المرتضى من الشيعة إن الله صرفهم بأن سلبهم العلوم التى يحتاج إليها فى المعارضة)(١).

وأضيف أن ابن حزم ممن ذهب إلى القول بالصرفة يرى فى وجه الإعجاز أن الله منع من معارضته فقط وحال بين الناس وبين ذلك وكساه الإعجاز وسلبه جميع الخلق وأن قليله وكثيره معجز لأن الله تحدى العرب أن يأتوا بمثل القرآن وكل شيء منه قرآن حتى الكلمة القائمة المعنى ، وقد عنى ابن حزم عناية خاصة بالتدليل على ما رآه كما عنى بإبطال مذهب المخالفين فليرجع إلى محله من أراد المزيد(٢) .

ثم إن الجوينى إمام الحرمين يزيد على جمهور الأشاعرة فيذكر أن وجه الإعجاز هو اجتماع الجزالة مع الأسلوب والنظم المخالف لأساليب العرب وعنده كذلك أن النظم وحده لا يستقيم كما لا تستقل الجزالة وحدها بل لا بد من اجتماع الأمرين ويضيف إلى ذلك الإخبار عن المغيبات وقد دلل على ما رأى بالحجج العقلية وآيات القرآن فليرجع إلى محلها من أراد(١) .

من هذا البيان يتضح أن الأشعرى ورجال مدرسته فيما عدا الاسفرايينى يذهبون إلى أن القرآن من حيث البلاغة والنظم والفصاحة فى درجة أسمى مما يتطاول إليه البشر وفى هذا رفع لشأن القرآن الكريم ، لكن القائلين

---

(١) شرح المواقف ص ٩٢ شرح المقاصد ص ٣٣

(٢) الفصل لابن حزم ج ٣ ص ١٥ ، ١٦

(٣) الارشاد للجوينى تحقيق محمد يوسف موسى ص ٣٤٩ ، ٣٥٢ طبعة سنة ١٩٥٠ م

بالصرفة فعلى معنى أن البشر كانوا يستطيعون أن يأتوا بمثله وأبلغ لولا أن الله منعهم ذلك حيث صرف دواعيهم عن ذلك وقد أعجزهم تعالى عن أن يأتوا بمثله .

وإذا كان فى الرأى الأول رفع لشأن القرآن إلى هذه الدرجة القصوى بحيث لا يصل إليه بشر ، فإن فى الرأى الثانى هدم لأمل كل من تحدثه نفسه بذلك وهو أكثر قطعا من الاتيان بمثله وأبلغ فى تقرير الإعجاز باللفظ والمعنى مما جعل ابن حزم الأندلسى يتأثر كثيرا بهذا الرأى (القول بالصرفة) ويعجب به ويدافع عنه بالحجة ويحاول جهده أن يبطل ما عداه فى كتابه الشهير (الفصل) وله كلام وجيه فى هذا الصدد يدل على مدى حبه لهذا الرأى يجدر بنا أن ننقله فى هذا المكان فيقول : (وقد ظن قوم أن عجز العرب ومن تلاهم من سائر البلغاء عن معارضة القرآن إنما هو لكون القرآن فى أعلى طبقات البلاغة وهذا خطأ شديد ولو كان ذلك — وقد أبى الله عز وجل أن يكون — لما كان حينئذ معجزة لأن هذه صفة كل سابق فى طبقته والشىء الذى هو كذلك وإن كان قد سبق فى وقت ما فلا يؤمن أن يأتى فى غد ما يقاربه بل ما يفوقه ، ولكن الإعجاز فى ذلك إنما هو أن الله عز وجل حال بين العباد وبين أن يأتوا بمثله ورفع عنهم القوة فى ذلك جملة)(١) انتهى كلامه .

ثم أنه ليس هناك من شك فى أن القرآن من حيث مفردات كلماته مؤلف من كلام العرب الذى كان معروفا لديهم وهو بعيد عن غريب الألفاظ وحواشيها ، ثم إن أسلوبه وإن كان فيه نثر مرسل وأيضا يوجد به السجع بأنواعه فهو فى جملته على غير ما عهد عند العرب أو عرف فى أسلوبهم فطالعه وسياقه وطريقة خطابه لم يعهد مثلها فى خطابهم كالبدء بيا أيها الناس

---

(١) الفصل ج ٣ ص ١٦

ياأيها الذين آمنوا ، ياأيها المدثر ، كما لم يعهد كون مقاطعه على مثل يعلمون ، يعملون ، يفعلون(١).

ولو أراد أحد البلغاء والفصحاء أن يؤلف كلاما بليغا من غير أن يحاول معارضة القرآن أو تقليده لأتى بكلام يقع فى النفس موقع القبول والرضا .

أما إذا حاول معارضة القرآن فإنه لايستطيع ذلك حيث أنه والحالة هذه سيضطر إلى تقليد القرآن والسير على طريقته والاستعارة منه والأخذ كذلك ، وحينئذ سيكون كلامه ممجوجا غير مقبول دون أن يستطيع تحسينه وربما أمكنه أن يأتى ببعض الكلمات والتعبيرات لكنها لاتعدو أن تكون من الحماقات والترهات والافتراءات الكاذبة كما فعل ذلك مسيلمة الكذاب بعد ادعائه النبوة فقد أراد أن يحاكى القرآن الكريم فأتى بكلام كان فى غاية السخافة والبهتان من مثل قوله عليه اللعنة .

[الفيل ما الفيل، وما أدراك ماالفيل، له ذنب طويل وخرطوم وثيل] إلى غير ذلك من الحماقات والتفاهات التى تفوه بها(٢).

من هنا أقول لعل مثل هذه الأسباب هى التى دعت البعض إلى القول بالصرفة فإن القوم يقرأون القرآن ويفهمونه ولايجدون عند سماعه غضاضة ، وبعد ذلك لو أرادوا أن يأتوا بمثله خانتهم قواهم العقلية وباؤا بالفشل وخيبة الأمل لذا قال الوليد بن المغيرة وقد أعجب بالقرآن مع شدة حقده على رسول الله ﷺ ، عرضت هذا الكلام على خطب الخطباء وشعر

---

(١) ينظر شرح المقاصد تعليق دكتور سليمان خميس ص٣٨ .

(٢) الارشاد للجوينى ص ٣٤٩ أيضا شرح المواقف بتعليق دكتور بيصار ص ٩٤ .

الشعراء فلم أجده منها ، وقد حكى لنا القرآن الكريم حكاية عن العرب قولهم : [إيت بقرآن غير هذا أو بدله(١) .

والحق بعد كل هذا نقول إن القرآن الكريم بحر زاخر وخضم واسع قد غاص فيه كل عالم من كل فن فاغترف كل واحد منهم رشفة من بحر واسع على قدر طاقته ووسع فهمه ، فالبلغاء ظهرت لهم فصاحة القرآن وبلاغة أسـلوبه وعذوبة المنطق من هنا ذهبوا إلى أن وجه الإعجاز هو البلاغة وبعضهم رأى صدقه وعجائبه التى لا تنتهى حيث أخبر عن المغيبات الماضية والمستقبلة وقد صدقها الواقع المشاهد .

ومن هنا قالوا إن وجه الإعجاز هو الإخبار عن المغيبات . ومنهم من نظر إليه من حيث اشتماله على دقائق الحكم وبدائع العلوم بما اشتمل عليه من أحكام تصلح أمر العباد فى المعاش والمعاد فى العاجل والآجل فذهب إلى القول بأن وجه الإعجاز ذلك وهكذا كل واحد تكلم عن القرآن من الوجهة التى تتفق مع مشربه وما وصل إليه بفكره ونظيره ، لكن الحق يقال إن القرآن اشتمل على كل ذلك وأكثر من ذلك .

تنتهى الدنيا ولا تنتهى عجائبه التى تكتشف كل يوم فها هو العـلم الحديث كل يوم يطالعنا بالجديد مما أكد عليه القرآن وتكلم فيه قبل العلم الحديث بأربعة عشر قرنا من الزمان فهو القول الحق ليس بالهزل تنزيل من حكيم حميد .

على أن القائلين بالصرفة لهم حجج استدلوا بها على مدعاهم نذكرها تتميما للفائدة ولنعلم مدى قوتها وهل سلمت من النقد أم لا ؟؟

---

(١) شرح المواقف المرجع السابق .

١ — قالوا إنا نقطع بأن فصحاء العرب كان عندهم المقدرة على التكلم بمفردات السورة ومركباتها القصيرة مثل الحمد لله ومثل رب العالمين ، وعليه فهم يستطيعون أن يأتوا بمثل سـور القرآن لولا أن الله منعهم القدرة وسلب منهم الدواعي .

وقد علق عليها صاحب المقاصد بما يفيد أنها ليست بالحجة القوية إذ أن حكم الجملة قد يخالف حكم الأجزاء ولو صح ما قيل فى هـذه الحجة لكان معنى ذلك أن آحاد العرب يستطيع أن يأتى بمثل قصائد فصحائهم وهـذا ما لم يقل به أحد .

٢ — واستدل القائلون بالصرفة كذلك بأن الصحابة رضوان الله عليهم عند جمع القرآن الكريم كانوا يتوقفون فى بعض السور على شهادة أكابر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين من القراء والحافظين للقرآن الكريم ، بل إن ابن مسعود رضى الله عنه تردد فى الفاتحة والمعوذتين ، فلو كان نظم القرآن معجزاً بفصاحته لكان كافيا فى الشهادة) .

هذه هى حجتهم غاية الأمر أن هذه الحجة قد ردت كسابقها بأن هذه الروايات السابقة مشكوك فى صحتها إذ المعروف أن جمع القرآن كان على عهد النبى ﷺ وعلى فرض تسليم صحة هذه الروايات فربما كان ذلك فهم على سـبيل الاحتياط والاحتراز عن أدنى خلل يتطرق إلى كتاب الله عز وجل(١) .

على أن الفرق الأخرى التى خالفت القائلين بالصرفة لا يكتفون بالرد على الحجج كما رأينا سابقا ، بل إنهم يستدلون على بطلانها كذلك بعـدة وجوه فمن أراد مزيد الاستقصاء فليرجع إلى محلها(٢) .

---

(١) شرح المقاصد بتعليق دكتور سليمان خميس ص٢٧ .

(٢) ينظر شرح المقاصد ص ٢٧ .

وقد ذكرت سابقا أن ابن حـــزم الذى اعتنق القول بالصرفة قد دافع عنـه ورد على المخالفين بكثير من الحجج وهى مذكورة بتمامها فى كتابه الفصل (١) .

هكذا نرى كل فريق يدافع عن رأيه ويحاول ما أمكن أن يقويه ويدعمه وفى نهاية هذا المقال أقول كما ذكرت سابقا أن القرآن بحر واسع فيه من كل العلوم والفنون فكل واحد له أن يغترف منه ما هو غاية مقصوده ونهاية مطلوبه ويترك الباب مفتوحا للآخرين يأخذون ما يحلو لهم أو ما تمليه عليهم قريحتهم بعد النظر والاعتبار فى كلام الله والله أعلم .

د/ عبد المعبود مصطفى سالم
مدرس فى قسم العقيدة
والفلسفة بالكلية

(١) الفصل فى الملل والاهواء والنحل جـ٣ ص١٦ وما بعدها .